سقراط وتهمة إهانة الآلهة

Socrates and the Accusation of Insulting the Gods

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.23066.16327

مقال منشور في جزئين بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ: ١٠، ١١يونيو ٢٠٢١

With Mind We Start, 2021, June 10, 11.

قبل ألفي وأربعمائة سنة، حاول رجل اكتشاف معنى الحياة: كان نمط بحثه فريدًا وجذابًا ومضادًا للحدس لدرجة أن شهرته امتدت إلى جميع أنحاء دول البحر الأبيض المتوسط. توافد الرجال – وخاصة الشباب – لسماعه يتحدث، واستلهم بعضهم عاداته الزهدية فراحوا يُقلدونه؛ أطالوا شعرهم، ومشوا بأقدامٍ عارية وعباءاتٍ ممزقة، لقد فتن المدينة فالتف حوله الجنود والبغايا والتجار والأرستقراطيين ينشدون الحكمة الغائبة ... ولا غرو، فلقد كان وجوده بمثابة لحظة فارقة في تاريخ الفلسفة، لحظةٌ تحول فيها الاهتمام البشري جذريًا من السعي إلى كشف أسرار الكون إلى استكناه حقيقة الإنسان ومغزى وجوده، أو كما قال «شيشرون» Cicero ببلاغة: لقد أنزل الفلسفة من السماء إلى الارض!

كان هذا الرجل هو «سقراط» *Socrates*، فيلسوف أثينا القديمة والأب الحقيقي للفكر الغربي؛ رجلٌ من أصول متواضعة، وُلد سنة ٤٦٩ قبل الميلاد تقريبًا لأب يعمل نقاشًا وأم قابلة (تمتهن توليد النساء)؛ مهنتان ليس لهما من الشرف الأثيني نصيب كبير، والأدهى من ذلك أنه وُلد متسمًا بالقبح وغرابة الأطوار في مدينة قدَّست الجمال الجسدي، وساد فيها الاعتقاد بأن الوجه الرائع يعكس نبل الروح الداخلي! كان أفطس الأنف، أشعث الرأس، ذا بطنٍ ممتلئة، ويدين مشعرتين، يمشي حافيًا وحاسرًا بطريقة غريبة، مرتديًا كساءً غليظًا كعادة الفقراء، تدور عيناه كأنما يرنو إلى شيءٍ ما أبعد من تعلم مهنة والده، وأعمق من مجرد معايشة معجزة الازدهار

الأثيني والتطلع إلى الثراء المُتاح في كنفها، تعلو صـرخاته بشـكل اسـتفزازي كلما التقى سُـكارى الملذات قائلاً: كم عدد الأشياء التي لا أحتاجها!

مع ذلك، كان – كما عرفه معاصروه – محاربًا قويًا وشُجاعًا، مُفعمًا بالنشاط والحيوية وحب الوطن، خاض صراعًا طويلاً ومُنهكًا تحت راية الديموقراطية الأثينية ضد اسبرطة Sparta خلال *الحرب البيلوبونيسية* Peloponnesian War، لكنه انتقد ما انطوت عليه من ممارسات أيديولوجية، متسـائلاً: ما جدوى الجدران والسـفن الحربية والتماثيل المتلألئة إذا لم يكن الرجال الذين يبنونها سعداء؟ وما سبب عيش الحياة إن لم يكن هناك حبًا يغشاها؟ صحيح أنه اعترف بما للديموقراطية الأثينية من مزايا، إلا أنه وجَّه سـهام نقده لعبثيتها، مؤكدًا أنه من السـخف أن يتم اختيار الحكام بالقرعة، في حين لا يفكر أحدٌ قط في أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البنَّاء أو النافخ في الناي أو أي صـانع على الإطلاق، مع أن هذا أقل ضـررًا بالضـرورة. وهو يعيب على الأثينيين حبهم للتقاضـي، وتحاسـدهم الصـاخب، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السـياسـية، وهو ما عبَّر عنه بقوله: «لهذه الأسـباب تراني على الدوام أخشـى أشـد الخشـية أن يحل بالدولة شـرٌ تنوء به وتعجز عن تحمله». وعلى الرغم من أن أثينا كانت تحب فكرة حرية التعبير، حتى لقد أطلقت على إحدى سفنها الحربية اسم «باريسيا» Parrhesia (أي التحدث بصراحة) انطلاقًا من هذا المفهوم، إلا أن مواطنيها لم يقرروا إلى أي مدى يمكن أن تكون حرية التعبير مكافئة لحرية الإسـاءة! من جهة أخرى، لم يرفض «سقراط» الدين الرسمي لأثينا صراحةً لأنه لم يجهر بمعتقداته الدينية، لكنه كان يذكر (الإله) بصـيغة المفرد بدلاً من (الآلهة)، وقيل إنه كان مدفوعًا بنوع خاص من التقوى، معتمدًا على ما أسـماه «ديمون» Daimonion أو «صـوته الداخلي»، وكان هذا «الشـيطان» Demon يُمسـك بتلابيبه من حين إلى آخر، فيقف الفيلسـوف سـاكنًا ومُحدقًا لسـاعات دون أن ينبس ببنت شـفة، لذا كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة ريبة وسـخط؛ كانوا يرونه خطرًا على المجتمع، لأنه أصـر على رفض التقاليد المرعية، وأراد أن يُخضـع كل طقس من طقوس الدين لحكم العقل بعد تقصٍ وفحص، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خير المجتمع أو أوامر الآلهة!

ولما يقرب من نصف قرن، سُمح لهذا الرجل بممارسة التفلسف دون عوائق في شوارع مسقط رأسه، حيث كان السعي وراء المعرفة بالنسبة له ضروريًا كالهواء الذي نتنفسه، قد لا نعرف عنه على وجه اليقين سوى مقولته المشهور ة: «الشـيء الوحيد الذي أعرفه هو أنني لا أعرف شـيئًا» ولكن للأسف لا يوجد دليلٌ حقيقي على نسبة هذه المقولة إليه، حيث تم توثيقها لأول مرة من قبل «شيشرون» بعد أكثر من ثلاثمائة عام من إعدام «سقراط» في أثينا سنة ٣٩٩ قبل الميلاد! لكن المؤكد، وفقًا لكُتاب سـيرته الذاتية: «أفلاطون» Plato و«زينوفون» Xenophon، أنه لم يكن

يبحث فقط عن معنى الحياة، ولكن عن مغزى وجدوى حياتنا، وطرح تساؤلات أساسية عن الوجود البشري: ما الذي يجعلنا سعداء؟ ما الذي يجعلنا صالحين؟ ما الفضيلة؟ ما الحب؟ ما الخوف؟ وكيف يجب أن نعيش حياتنا بشكل أفضل؟

وفي سعيه للإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، كان «سقراط» مُدركًا لمدى قوة الحوار المباشر مع الآخرين؛ كانت الأجورا الأثينية The Athenian agora (سوق أثينا) بمثابة غرفة التدريس الخاصة به، حيث كان يقفز على المارة – كما يسجل «زينوفون» – لاستنطاقهم بما يود قوله. التقى ذات يومٍ شابًا في شوارع أثينا فسأله: أين يمكنني العثور على الخبز؟ فدله الشاب بأدب عمن يبيعون الخُبز، ثم سأله مرة أخرى: وأين يمكنني العثور على الخمر؟ فأخبره الشاب بأسلوبه المُهذب ذاته عن مكان بيع الخمر، لكنه فاجأه بسؤال ثالث: وأين يمكن العثور على الخير والنُبل؟ فشعر الشاب بالحيرة وعدم القدرة على الإجابة، فقال الفيلسوف «اتبعني إلى الشوارع وتعلم»!

هكذا كان «سقراط» يفضح الجهل ويُسفه أحلام الغافلين دون أن يزعم الإتيان بجديد أو تعليم الناس ما لم يعرفوه؛ ولئن كان هذا مقبولاً خلال العصر الذهبي لأثينا، حيث يمكن للسادة أن يتباهوا بدولة الرفاهية، إلا أن تحقق توقعاته بهزيمة أثينا وتدهور أحوالها كان نذيرًا بتحول المشهد، ومساءلة رؤيته وجاذبيته للشباب وتقواه الشخصية غير العادية، وكلماته التي تُخبرهم بما لم يرغبوا أصلاً في سماعه، كمسحة شريرة تعصف بالاستقرار الهش للمجتمع! ها هي الدولة المتألقة تُكابد تبعات الحروب الأهلية والخارجية، وينهار اقتصادها القوي، ويجوع سُكانها، ويعود رجالها إلى بيوتهم جثثًا لا حراك لها!

في صباح يومٍ ربيعي من سنة ٣٩٩ قبل الميلاد، استدعت المحكمة الديمقراطية الأولى في قصة البشرية الفيلسوف البالغ من العمر سبعين عامًا إلى قفص الاتهام بتهمتين: الأولى عدم احترام آلهة المدينة التقليدية، والثانية إفساد الشباب وتضليلهم، وبعد محاكمة تردد صداها عبر عصور التاريخ المختلفة، أصدرت هيئة المُحلفين المكونة من زملائه الأثينيين حكمها الصارخ: الإعدام برعاية الدولة، حيث كان عليه أن يتناول قدرًا كافيًا من سُم الشوكران Hemlock Poison (السام العصبي) ليلقى حتفه في زنزانته! وعلى الرغم من أن فرصة الفرار من السجن قد أتيحت له بمساعدة كثرة من المتعاطفين معه، إلا أنه رفض أن يفعل ذلك؛ كان كعادته يطيع فقط «شيطانه» (الضمير)، ولذا لم يكن الموت أمرًا مخيفًا له. والحق أنه كما كان لسقراط أتباعٌ مخلصون في المدينة، كان لديه أيضًا كثرة من الأعداء، الذين كانت مصالحهم مهددة بمحاولات الفيلسوف بعث ملكة التفكير لدى الناس من خلال الحوار الفلسفي، أو بالأحرى دفعهم نحو

التفكير بأنفسهم، حتى لو حذَّرهم بأن الشيء الوحيد الذي يمكن للمرء أن يكون على يقين منه هو مدى ضآلة معرفته (وهو ما يُعرف بعقيدة الجهل السقراطية)!

لا شـــك أن «ســـقراط» كان كبش فداء لخيبة أمل أثينا؛ فعندما كانت المدينة قوية، كان من الممكن التسامح مع الفيلسوف المارق من أجل الأفضل، لكن الأثينيين، بعد أن اجتاحهم أعداؤهم ونكلوا بهم، اتخذوا وجهة نظر أكثر أصـــولية؛ وجهة نظر تضـــع ديموقراطيتهم ذاتها التي حوكم «سـقراط» على هديها موضـع تسـاؤل. يمكن لنظام الحُكم الواثق من ذاته أن يتلقى النقد بصـدرٍ رحب، لكنه يرتعد خوفًا من أية كلمة نقد تُوجه إليه إن كان هشًـا! هذا ما حدث بالفعل، لاسـيما وأن حكمة «ســقراط» الأثيرة «لا تســتحق الحياة غير المختبرة أن تُعاش» كانت قد بدأت تؤتي ثمارها قُبيل وأثناء محاكمته. من جهة أخرى، كان لأفكار «سقراط» تأثيرٌ مذهل على الحضارتين الغربية والشـرقية، بل لقد بات واحدًا من أعمدة الحكمة السـبعة Seven Pillars of Wisdom في ذاكرة البشرية.

إذا نحينا جانبًا مكانته التي لا تتزعزع في قائمة الأســماء الضـــخمة في مســيرة الحضـــارة الإنسانية، فإن اهتمامنا بهذا اليوناني الفضولي والذكي المُدان يظل قائمًا ومُلهمًا، ببساطة لأن ما نعيشه ونعايشه اليوم من مشكلاتٍ هو ذاته ما عاشه وعايشه «سقراط»، لقد عاش في دولة مدينة كانت تتغني بالديموقراطية، وتخدع رعاياها بمجتمع الرفاهية والقوة دون فهمٍ دقيق للعالم ولما يُحدق بها من مخاطر! واجه «ســـقراط» – كما يُواجه اليوم أي منتقدٍ ولو كان مُحبًا لوطنه – المحاكمة بالشائعات والتشهير الإعلامي (والقياس مع الفارق)، كما واجه تُهمة الكفر العقلي بآلهة المدينة من البشر!

عندما وقف «سـقراط» لمواجهة اتهاماته أمام زملائه المواطنين في الأجورا الأثينية، عبّر عن أسفه البالغ جرَّاء محاكمته قائلاً «ليست جرائمي هي التي ستدينني ... لكنها الإشاعات *Pheme*، الثرثرة؛ حقيقة أنكم من خلال همسكم لبعضكم البعض ستقنعون أنفسكم بأنني مذنب»! إنها الثرثرة التي وصـفها الشـاعر اليوناني «هزيود» Hesiod بأنها «شـريرة بطبيعتها، يسـهل تحريكها على ألسـنة الناس، ولكن من المسـتحيل إخمادها». في ضـوء هذا الدرس السـقراطي، يمكن للمرء أن يصـف الفلسفة بأنها ممارسـة لا «تكرم آلهة المدينة»، حيث تمثل هذه «الآلهة» كافة الممارسات الأيديولوجية ورموزها وأبواقها الإعلامية التي تحكم الحياة في أي مجتمع؛ كالكنيســـة خلال العصـور الوسـطى المسيحية، أو الدولة القومية خلال العصـر الحديث، أو الشركات في العصـر الحالي الذي تُهيمن فيه الرأســـمالية النيوليبرالية. وعلى مدار التاريخ، لم يكن «ســـقراط» هو الفيلســوف الوحيد الذي دفع ثمنًا باهظًا لاســتقلاله الفلســفي في التفكير؛ هناك مثلاً الفيلســوف الإيطالي «جيوردانو برونو» Giordano Bruno الذي عوقب حرقًا في روما ســـنة ١٦٠٠ م، لا

لشـيء سـوى لجرأته على الإيحاء بأن الأرض ليسـت هي الكوكب الوحيد الذي توجد فيه كائنات عاقلة. كانت حجته بسـيطة: إذا كان الله غير محدود (وفقًا لعقيدة الكنيسـة الأرثوذكسـية)، وكان سـببًا للكون، فمن الضـروري إذن ألا يكون الكون متناهيًا، وأن تكون هناك عوالم لا حصـر لها ازدهرت فيها الحياة الذكية!

ثمة فلاسـفة آخرون عوقبوا بتقييد حريتهم على خلفية مواقفهم السـياسـية، ومن هؤلاء «برتراند رسل» الذي ذاق مرارة السجن مرتين (سنة ١٩١٨، وسنة ١٩٦١) نتيجة مواقفه المناهضة للتسلح النووي، وما زال نشاطه الهادف إلى إقناع الحكومة البريطانية بالتخلي عن الأسلحة النووية بمثابة منارة للشـجاعة الأخلاقية للفلاسـفة (أو الفنانين، أو حتى الناس العاديين، فنحن جميعًا في النهاية مجرد بشر، نشعر بأن واجبنا الأخلاقي يُحتم علينا اتخاذ موقف ضد كافة أشكال إساءة استخدام السُلطة)!

لا شـك أن ثمة فلاسـفة – على الجانب الآخر – قد عمدوا بلا حياء إلى توظيف الفلسـفة في خدمة «آلهة المدينة»، هؤلاء هم «فلاسـفة التلفاز» TV philosophers، أو هم من أطلق عليهم «آرثر شـوبنهور» Arthur Schopenhauer في القرن التاسـع عشـر لقب «مفكرو الخُبز» Bread Thinkers، الذين يخدعون الرأي العام بتبريراتهم وتسـويقهم لأفكار تتفق مع الأيديولوجية السـائدة لخدمة مصالحهم الآنية أو لتحقيق مكاسب مادية. ولو شئنا الدقة لقلنا إن هؤلاء ليسوا في الحقيقة فلاسـفة، بل هم بالأحرى أناسٌ متسـلقون متنكرون في صـورة فلاسـفة. ولا عجب أن يُوصـف عصـرنا الحالي بأنه «عصـر ما بعد الحقيقة» Post Truth، بمعنى أنه نظرًا للتُخمة التي لا يمكن السـيطرة عليها من المعلومات التي تُهاجم حواسـنا وعقولنا على مدار السـاعة، فمن المسـتحيل التمييز بسـهولة بين الحقيقة والوهم، أو بين الأخبار الموثوقة والزائفة. ومع ذلك فإن كل إنسـان – ما زال يتمسـك بملكة العقل كسـمة أسـاسـية للبشـر – بإمكانه ممارسـة التفكير الناقد، ومقارنة وجهات النظر المختلفة حول أي موضـوع، لكن الأهم من ذلك أن يكون مُسـلحًا بالفلسـفة كفكر حر ومسـتقل ينبش في الأسـس التي تُبنى عليها المعلومات والأخبار المتدفقة بلا هوادة، متذكرًا دائمًا ملاحظة سـقراط التحذيرية القائلة إن الشـيء الوحيد الذي نعلمه هو مدى ضـآلة معرفتنا، وليتذكر أيضًا مقولة هيراقليطس: توقع ما هو غير متوقع Expect the Unexpected!

***

- **توثيق المقال بنظام APA:**

عثمان، صلاح (١٠، ١١يونيو ٢٠٢١). «سقراط وتهمة إهانة الآلهة». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٢٣ نوفمبر ٢٠٢١ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/سقراط-وتهمة-إهانة-الآلهة-الجزء-الأول/

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/سقراط-وتهمة-إهانة-الآلهة-الجزء-الثاني/

APA Citation:

Osman, S. (عثمان، ص) (2021, June 10, 11). Socrates and the Accusation of Insulting the Gods (سقراط وتهمة إهانة الآلهة). Retrieved November 23, 2021, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/سقراط-وتهمة-إهانة-الآلهة-الجزء-الأول/

Osman, S. (عثمان، ص) (2021, June 10, 11). Socrates and the Accusation of Insulting the Gods (سقراط وتهمة إهانة الآلهة). Retrieved November 23, 2021, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/سقراط-وتهمة-إهانة-الآلهة-الجزء-الثاني/

***